

المحاضرة (٧)

(احمد شوقي)

١٨٦٩ - ١٩٣٢

يلاحظ الدارس للشعراء المعتدلين، الكلاسيكيين الجدد وضوح شخصياتهم في شعرهم، وضوحاً، يكاد يشكل ظاهرة متميزة في تاريخ الأدب الحديث، شأنهم في ذلك شأن رائدهم الأول - محمود سامي البارودي- فقد لمسنا في شعر حافظ والرصافي ما يعكس شخصيتهما، ويجسد حياتيهما، أشد ما يكون التجسيد.

وربما يفوق هذا الوضوح لدى احمد شوقي، ما وجدناه لدى حافظ والرصافي. وإذا شئنا أن نطبق منهجنا النقدي، الذي يحتم علينا دراسة شعر الشعراء في تأثره بالتيارات السياسية والاجتماعية والدينية، كما ندرسه في ظل ما ينتهي إليه فهمنا لشخصياتهم، في عواطفها ومشاعرها وثقافتها وفهمها لطبيعة المجتمع والحضارة وطرائق الحكم، وغير ذلك مما يتصل بهم، ويؤثر فيهم، وينتهي بعد ذلك إلى ظهوره في شعرهم، إذا شئنا ذلك، توجب علينا أن ندرس تأثير كل هذه العوامل في شعر الشاعر ليكون حكمنا عليه وعلى شعره قريباً من الصواب، بعيداً عن الزيف.

والواقع أن شوقي وشعره، قد تأثراً تأثراً بعيداً بما حولهما، من ظروف وأحداث وهي ظروف متقلبة، وأحداث كثيرة، فلما صادفت شاعراً مثلما صادفت (شوقي) ومرد ذلك عندنا سببان:

الأول: أن عصر شوقي قد نهض بالكثير من التحولات والثورات، ولم يقف الشاعر بعيداً عنها، بحكم موقعه الاجتماعي المتميز، وتطلعاته وثقافتهن فقد ما أعانته تلك الظروف على أن يعيش في بحبوحة من الرخاء والدعة، فقد فاجأته أعاصيرها بما أفقده عزه وجاهه ومكانه، فعاش سنوات الغربة بعيداً عن وطنه، يكابد أسى الحنين، وألم الغربة، وإذا بقصور الاندلس التي ضاعت من أهلها، تذكره بما فقد من عز وحرم من نعيم في قصور اسماعيل وتوفيق وعباس ولذلك سالت قصائده غناءً وحنيناً وتذكراً، ولم يعد بعد ذلك يناغي بلابل تلك القصور، بل اضطر اضطراراً إلى أن يحيا ما بقي له من سني حياته، مع صفوف الشعب يشاركه الامه ويشاطره اماله.

وليس هذا فحسب، فقد أثر في شعر شوقي، وانطبع كل ما كانت تتطلع إليه أمته وشعبه من ثورات سياسية وتطلعات اجتماعية، وما استدعاه أدب أمته، شعره ونثره من تطورات، فكانت الشاعر يستجيب لكل ذلك.

واتسع شعره للعديد من الفنون الادبية الجديدة، والموضوعات الحديثة والمعاني المبتكرة.

والسبب الثاني: يتعلق بشخصه وطبيعة نفسه واتجاهات ثقافته، فقد كان شوقي كثير الآمال، شديد التطلع، عميق الاحساس، وكان فوق ذلك يمتلك ذكاء حاداً، ومواهب مختلفة. وساعده على ذلك كله نشأته وحياته في قصور حكام مصر التي هيأت له كل ما كانت تصبو إليه نفسه.

وتأسيساً على هذين السببين، صار لزاماً علينا أن نشير إلى تلك الأحداث والتطورات بشيء من الإيجاز.

رحلة الحياة وروافد الثقافة في القصر:

ولد احمد شوقي في قصر الخديوي اسماعيل، حيث الجاه والغنى والتطلع، بعيداً عما كابده كثير من شعراء جيله، ومنهم كما أسلفنا- الرصافي وحافظ.

وفي هذه البيئة، ارتبط الشاعر بالأمرء قبل أن يصبح أمير الشعراء.

وقو توجه في سن مبكرة إلى المدارس الخاصة بعد أن ضاق بالكتاب التي كانت تعنى بالدراسة الدينية، ثم ألحق بعد انتهاء دراسته الأولية بمدرسة الحقوق، مع من ألحق من أبناء الطبقة العالية.

وينهي دراسته فيها بقسم الترجمة، وقد كفل له هذا اتقان اللغة الفرنسية، وبذلك يكون الشاعر قد تعلم العربية والتركية، في مطلع شبابه، بفعل حياته في القصر واتقن الفرنسية بفعل دراسته بقسم الترجمة في مدرسة الحقوق.

وفي هذه الفترة تفتحت شاعريته، لتكون في خدمة ولي نعمته توفيق، الذي عينه موظفاً في القصر. وقد أتاح له ذلك، إكمال دراسته في فرنسا، فشد الرحال إليها على نفقة القصر، وأختار مدرسة الحقوق في مدينة مونبيليه، ف قضى فيها سنتين، والتحق بعدها بباريس، وقضى فيها سنتين أخريين، وقفل راجعاً إلى حيث ينتظره العز والنعيم.

وقد غدت مرحلة الدراية في فرنسا ملكاته الفطرية، إذ وفقته على مظاهر الحياة الغربية، ومألت عينه بمفانيتها المختلفة، كما ملأت نفسه بما فيها من ثقافات، واطلعت على العديد من الفنون والاداب، وعلى الخصوص المسرح والشعر على لسان الحيوان.

وكان قد قرأ للافونتين، وقصد دور الأوبرا، وشاهد المسرحيات، واستقر في نفسه منذ آنئذ أن يجري شعره في روافدها، سداً للنقص الذي خلفه أدبنا العربي في عصوره المختلفة.

وحبن عاد الشاعر إلى مصر، كان (عباس) قد خلف والده (توفيقاً) بعد موته، فاصطفاه الشاعر ولياً لنعمته، وقام على خدمته رئيساً لقسم الترجمة في القصر، وكان حرياً به أن يخلص له، ويدافع عنه ويخاصم خصومه من مثل رئيس الوزراء (رياض) الذي هاجمه ببعض قصائده التي يفتتحها بقوله:

أيامكم أم عهد إسماعيل أم أنت فرعون يسوس النيل

وياليت الشاعر يكتفي بمهاجمة الانكليز والظالمين معهم، فقد دفعه ولاؤه لآل اسماعيل إلى مهاجمة الشعب ممثلاً بزعيمه (عربي) حين عاد من منفاه، فاستقبله شوقي بهجائه يقول فيها:

صغار في الذهاب وفي الاياب أهذا كل شأنك يا عربي

وهذا الولاء الشديد للخديوي قد حدد في رأينا موقع الشاعر الاجتماعي، إذ صار منذ عاد من فرنسا لسان حال الخديوي والمعبر عن سياسته. ومن هنا كانت مواقفه تجاه الانكليز والمصريين أيضاً تخضع لسياسة الخديوي وتتأثر بها سلباً وإيجاباً. ومن هنا فقد أصبح شوقي أسيراً لمولاه، وصار شعره تجسيداً لسياسة القصر وحياة الخديوي ونم معه، يصور حياتهم فيه وما فيها من عبث ولهو، وما تمود به من صور الرقص والغناء، وما تشتبك فيه من علاقات، وتحاك من دسائس ومؤامرات على الشعب ومصالحه على الوطن وحرية، كل ذلك والشاعر يغض الطرف عما يراه.

ولم تكن هذه الحياة المترفة هي الوحيدة التي يستظل بها شوقي والتي عبر عنهما بقوله:

رمضان ولي هاتها ياساقي مشتاقه تسعي إلى مشتاق

ويقوله يصف الخمرة:

حرف كأسها الجرب فهي فضة ذهب

ولا يكتفي بما عبر به عن خمرة، فقد راح يعبر عن لذة وصاله فيقول:

ذقت منها حلواً ومرّاً وكانت لذة العشق في اختلاف المذايق
حمايني ما شئت في الحب إلا حادث الصب أو بلاء الفراق

فقد كانت له صورة أخرى مغايرة في القصر، يبدو فيها مسلماً ومؤمناً أشد ما يكون الإيمان عمقاً في نفسه، فقد مضى يكتب أعظم مدائحه النبوية، ويدافع عن حوض الخلافة الإسلامية، ويهنئ السلطان العثماني بانتصاراته على الأوربيين المارقين ويبشره بالفتح المبين. فشوقي الذي عبر عن حبه وعن خمرة في الأبيات السابقة، هو الذي نظم همزته الشهيرة في الرسول محمد صلوات الله عليه، معارضاً البوصيري بقوله:

ولد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وثناه

وهو الذي عارض صاحب البردة نفسه بقوله:

ريم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمي في الأشهر الحرم

والذي يهمننا من أمر هذا التناقض، هو ما نتج عنه من شعر يحتفل به أدبنا الحديث، فعلى الرغم من أن هذه الفترة قد تميزت بكثرة قصائد المدح، وأن الشاعر قد ابتعد فيها عن الشعب والوطن، إلا أن ذلك لم يصل إلى حد القطيعة، فقد كانت مدائحه النبوية، وقصائده الإسلامية، هي التي تصل ما بينه وبين الشعب الذي كان يتلقى تلك القصائد بالغبطة والرضا، لما كانت تمثل من عواطف دينية يحرص عليها الناس وقتئذ، رد فعل للهجمات الغربية، التي كانت تستهدف الإسلام ونظام الخلافة.

كما كانت قصائده المستوحاة من التاريخ المصري القديم، تقوي هذه العلاقة بينه وبين جمهور الشعب، خصوصاً بعد استشعار المصريين لحضارتهم القديمة، واحتفالهم بمبادئ الحرية، منذ غادرت حملة نابليون أرض مصر، واكتشاف حجر رشيد.

وقد صار الشعر الذي صور فيه حياة القصر، وما كان يدور من بذخ ولهو وعبث، وتلك القصائد التي كان يمدح فيها السلاطين، ويهنئهم على انتصاراتهم في حروبهم، كل ذلك صار وثيقة سياسية واجتماعية لمصر وأحداثها وتاريخها المعاصر. ناهيك عما يتوافر عليه كثير من تلك القصائد من روعة فنية، تمتلك الأصالة والروعة، وتحفظ بكل ما تحتفظ به القصيدة الجيدة من عناصر الخلود، كقصيدة (النيل) وقصيدة (توت عنخ آمون)، وكل قصائده التي مدح بها الرسول الاعظم 6، وهي لا تمتلك الأصالة الفنية وحسب، وإنما تتوافر على قدر كبير من الصدق الشعوري الذي لا يرقى إليه شك.

في المنفى: ١٩١٥ - ١٩١٩

لقد كان شوقي وفياً كل الوفاء لاسماعيل ولآله من بعده، إذ لم ينس ما أنعموا عليه طوال ربع قرن أو يزيد. وحين عزل الانكليز عباساً، وأحلوا مكانه (حسين كامل) كان شوقي في مقدمة الذين أطيح بهم، فاختر الأندلس مكاناً لنفيه، ولكن ما أن حل بها، حتى ضاق صدره، وخفق فؤاده حنيناً إلى مصر، وربما شعر منذ أن حطت قدماء على أرض الأندلس أنه قد حيل بينه وبين عشه الذهبي، الذي غادره، فغذى ذلك الشعور، ألمه واستحال نغماً حزيناً يصيغ شعره.

وإذا كان النفي قد استبدل آمال شوقي بآلامه، وأفراحه بأحزانه، وطموحاته بسرابه، فإنه قد حقق للشعر ما أثاره موضوعاً وفناً وصدقاً فقد كانت قصائده في مرحله القصر وفقاً على موضوعات معينة، خصوصاً تلك التي تخص الخديوي وآله وقصره، وكانت مقيدة بما ينسجم مع مصالحها وأوضاعها، أما الآن فقد فك هذا القيد، وأطلق شعر الشاعر من عقاله، كما منحت الحرية التي تمتع بها الشاعر قصيدته عمقاً وصدقاً، وفتحت لشعره باباً جديداً لموضوع القصيدة

ومعانيها وتجربته فيها، ويكفي كسباً للشعر، إن (شوقي) قد تحول في قصائده التاريخية إلى تأريخنا العربي الإسلامي، يستلهمه ويستنبط منه المعاني والأفكار ويصور فيه عظمة العرب والمسلمين. وما كان لهم من أمجاد وما تركوا من آثار تشهد بعظمتهم وتفوقهم.

وهكذا راح شوقي يبعث أنغامه الحزينة في قصائد الحنين والغربة، أو يصف ربوع الأندلس ويحيي آثارها، ويصور معالمها، ويجسد عظمة الذين تركوا بصماتهم عليها وراح يستلهم قصائد ابن زيدون والبحثري وغيرهما، ليغذي بها ما يؤكد استقلال شخصيته الوطنية والقومية. وكأنما كانت فترة مكوثه في المنفى تمهيداً لانتماؤه إلى الوطن وعودته إلى أحضان الشعب، وتحسسه لمشاكلهم، وتلبية حاجاتهم، وهكذا كان منذ أن حطت قدماه أرض مصر بعد العودة إليها من المنفى.

وكان للحرية التي منحتها إياه فترة المنفى هذه، الفضل في عطائه الفني، وتعميق أصوله، وتوسيع جوانبه، فقد نظم في الأندلس منظومته المطولة (دول العرب وعظماء الإسلام) وهي أرجوزة تعليمية، أرخ فيها تاريخ العرب، حتى نهاية العصر الفاطمي، كما كتب مسرحيته النثرية الوحيدة (أميرة الأندلس).

ما بعد المنفى ١٩١٩ - ١٩٣٢

عاد شوقي من منفاه بالأندلس، وعادت معه حريته التي فقدتها في قصر توفيق وعباس وكان أول قصيدة قالها بحق وطنه، بعنوان (بعد المنفى) وقد أعلن فيها عن حبه الدافئ ومشاعره العميقة فقال:

ويا وطني لقيتك بعد يأس كأنني قد لقيت بك الشـبابا
أدير إليك قبل البيت وجهي إذا فهت الشـهادة والمتابا

وفي القصيدة، يتحسس هموم الشعب، فيتحدث عن مشاكل التموين وجشع التجار، وفيها تحول خبير واضح في موضوع القصيدة الشوقية.

وتتوالى قصائده الموضوعية، سياسية واجتماعية وتربوية وخلقية، حتى صارت أشبه بقصائد المناسبات. وهي في الحق لا تبتعد عن هذه الروح.

وإذا كان موضوع هذه القصائد قد سقط كثير منه في وهاد التقريرية والمباشرة، إذ لا عمق فيه بسبب طبيعته الموضوعية، إلا أن المبدأ الذي يقوم عليه موضوع تلك القصائد ينتمي إلى واقعية صحيحة، تتصل بحاجة الأمة، وتلبي آمال الجمهور، وتلتقي مع عواطف الناس فتجسد طموحاتهم، وتصور تطلعاتهم، وتعبّر عما يختلج في نفوسهم من أماني وطنية. ومقاصد اجتماعية ومعانٍ تربوية. وهكذا راح شوقي يدلي بدلوه مع دلاء حافظ والرصافي والزهاوي والجواهري، وغيرهم ممن استمدوا موضوعاتهم من مشاكل الناس، وحاجات الجمهور.

وسارت قصائده في هذا التيار، فإذا هو ينقد المشاريع الاستثمارية التي تحط من كرامة بلده. وحين يرى أحزاب الأمة يختلف مع بعض البعض الآخر، يدعو إلى الوحدة الوطنية. وراح يؤلف الأناشيد الوطنية ليحمس الشباب ويستتفر وطنيتهم. وتسابقت الصحف إلى نشر قصائده، وتسبق معها أبناء الشعب ليقراً ما ينظمه الشاعر العائد إلى أرض الوطن.

ولم تقف جهود شوقي الشعرية في تلك الفترة على التعبير عن حاجات الشعب المصري وتجسد أمانيه، وإنما تجاوزتها إلى الأفطار العربية الأخرى، يغني لها أناشيد النصر، وينشد أغاني الحماسة، فيفرح لفرحها، ويبأس لأساها، فحين ضربت دمشق بمدافع الفرنسيين. نظم قصيدته التي ألقاها في المجمع العلمي العربي فيقول:

قم ناج جلق وانشد رسم من بانوا مشت على الرسم أحداث وأزمان

ومما ورد فيها:

لولا دمشق لما كانت طليطلة ولا زهت ببني العباس بغدان

وشوقي في قصائده الوطنية بعيد العمق، واضح الاتجاه والأبعاد، دقيق النظر في ما يجري في أمته وحول أمته، لذلك كان يلبي ما تضرره الأمة من مشاعر وأحاسيس، وما شعره يؤكد أمانى الشعب ويجسد احلامهم في الوحدة والنضال فيقول:

ونحن في الشرق والفصحى بنو رحم ونحن في الجرح والالام اخوان
بنو سورية أطرحووا الأمانى والقوا عنكم الاحلام الفوا
نصحت ونحن مختلفون داراً ولكن كنا في الهم شرق
ويجمعنا إذا اختلفت بلاد بيان غير مختلف ونطق
وللاوطنان في دم كل حر يد سلفت ودين مستحق

تلك هي احلام السوريين وكل العرب، الوحدة والنضال والتفاني والبذل.

وعلى الرغم من أن هذه القصيدة وأمثالها. تنتمي إلى ما يشبه شعر المناسبات، إلا أنها كما نرى تمتلك وضوحاً فكرياً ناضجاً، كما تمتلك صدق التجربة الشخصية والفنية ولعل من حظ الشعر الوطني والقومي والاجتماعي، أن ينتقل إلى شوقي لأن ما نجده من تقريرية وثرية، وعاطفية سريعة لدى معظم الذين نظموا فيه لا يصل في مستواه الفني إلى ما وصل إليه عند شوقي لما كان يمتلكه من مؤهلات فنية، دون ان تتعرض القصيدة إلى هذه الظاهرة السيئة.

هكذا راح شوقي إذن في فترة ما بعد المنفى - يلهج بما تضرره الأمة ويحقق لها ما كانت

تنتظره في ميدان الشعر.

ولم يقف شاعرنا في هذه المرحلة عند الموضوعات الوطنية والاجتماعية حسب، بل راح يدقق النظر في طبيعة الأرض العربية، ويكشف عما فيها من حياة وحيوية، وقد لفت نظره ما كان يجده في طبيعة الأرض العربية، ويكشف عما فيها من حياة وحيوية، وقد لفت نظره ما كان يجده في طبيعة لبنان من سحر وجمال، خلال زيارته المتكررة فراح يستخدم ريشته، ليرسم خطوط الطبيعة اللبنانية ، وألوانها، ويكشف عن رياضها وغدرانها وسهولها وجبالها ومروجها وسحبها. وكل ذلك ثمرة النزعة القومية العربية التي برزت بعد عودته من منفاه. هذه النزعة التي سبقه إليها حافظ والرصافي ومحرم وغيرهم، لكن قصائدهم لم تحقق في مستواها الفني - على الأقل - ما حققته قصائد شوقي في هذا الميدان، فراح يبيزهم ويستولي على قلوب الجماهير التي كانت تتلقف قصائده الوطنية والقومية بلهفة وارتياح. وأقبل الملحنون والمغنون على العديد من هذه القصائد . يسكبون فيها أنغامهم الجميلة، وبذلك يكون شعر شوقي، قد فتح باب الغناء في القصيدة الحديثة، بعد أن سد في وجهها قروناً طويلة، وذلك بفضل ما تمتلكه قصائده من قدرة موسيقية لا تتوافر لدى غيره من شعراء جيله. وهذا يعني أن شخصية شاعرنا في هذه المرحلة قد فنيت في أمته وفي قضاياها المختلفة.

وقد انتبه شوقي ضيف إلى هذه الظاهرة في شعر شوقي فقال (فشوقي ليس من الشعراء الأثرين الذين تنطبع في شعرهم حياتهم الخاصة، وإنما هو من الشعراء الغيريين أن صح هذا التعبير، قد وهب فنه وشعره لا لنفسه وإنما لغيره وقد احتفظ شوقي بعد رجوعه من المنفى بخاصته الفنية المميزة له، وهي أن يكون شاعر غيره) .

وفي مرحلة ما بعد المنفى، تفرغ شوقي إلى كتابة مسرحياته الشعرية، ونظم على لسان الحيوان، وبهذا يضيف إلى شعرنا الحديث ما يثريه وينمي أصوله. وهكذا تتميز هذه المرحلة بالنسبة لشوقي ، بالانتاج الثر، وبتطور الموضوعات الشعرية، وبالتفاته إلى ما كان يحلم به ادبنا العربي في كتابه الشعر التمثيلي. بل لعل ذلك كان من احلامه التي راودته في مستهل حياته الادبية فإذا هي تتحقق له